خدّوجَة

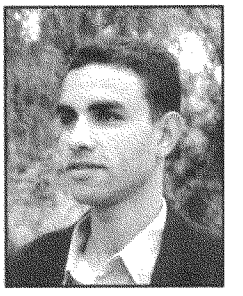

عبد العزيز الراشدي
مواليد ١٩٧٨. حاصل على الإجازة في الأدب العربيّ وعلى ماجيستير في علم النصّ. أصدر ثلاث مجموعات قصصيّة: **زقاق الموتى** (٢٠٠٤)، **وطفولة ضفدع** (٢٠٠٥)، **ووجع الرمال** (٢٠٠٧). وله رواية، **بدو على الحافة**. بالإضافة إلى نصوص تحت عنوان **غرباء** (٢٠٠٩). حصل على العديد من الجوائز والمنح الأدبيّة، من بينها: جائزة اتحاد كتاب المغرب. وجائزة الشارقة العربية في مجال الرواية بالإمارات. كما تمّ اختياره مؤخّرًا ضمن لائحة «بيروت ٣٩» لأهمّ لكتّاب العرب الشباب، بلبنان.

الطريـق طويلـة والوقت فجر، ولا بدّ للطفـل أن يقود الأعمى. يَصـعدان ويهبطان مع العقبـات. الطفـل يقيس المسـافةَ بالعين، والأعمى يقيسـها بالذاكرة. قد لا تُفضـي الدروبُ الطينيّة الطويلة التي يسـيران فيها إلى مصـير، لكنّ المسـافة تموت عند كلّ فجـرٍ في اتجاه السـوق الأسـبوعيّة. لا يهتمّان لبـردٍ ولا لغريب؛ ذلـك لأنّ البهجة في اختلاطهما، وفي تذكّر أصواتِ الباعة، وفي حماسهما للبيع والشراء.

كلَّ يوم يقصـدان مكانًا مختلفًا: الاثنين سـوق أعلى الريح. الثلاثاء سـوق تيمضاض الأمازيغيّة. الأربعاء سوق فم الحسن. وهكذا. ثم إنهما يسيران؛ وفي السير كفايةٌ لمن لا يريد سـوى تأمّلِ وجوهِ الحياة، كما يحدث للصـبيّ الذي يبدو أكبر من سِنّه بالشعر الكثيف والطول الفارع. يسـيران، فيخدعُ الصـبيُّ نفسَـه في الطريق بقوله إنني أقودُ عمّي كما أقود درّاجة وأسـتمتع، وحين أكبرُ سـأبني لنفسي بيتًا وأصبح تاجرًا وأتزوّج خَدّوجَةَ ابنته. ورغم أنه لم يَسُـقْ درّاجة فإنّه يسـتطيع أن يتخيّل نفسـه وهو يركبها: سـوف يتّكئ على الحائط في الأيّام الأولى، وبعدها سيسـوقها بلا مشـقّة، وسيصيح بالأطفال أن يبتعدوا كي لا يدهسـهم لأنّ أسـلاك الكابح مقطوعة، فيهرب الجميعُ... إلّا خَدّوجَة التي تشاكسُه وتقف برهةً أمامه، حتى إذا اقترب منها زاغت.

أما الأعمى فلا ينظر إلى أمام. وهو لا يتحسّـس جسـدَه بسبب الجلابيب الكثيرة التي تَحْرصُ العجوزُ على أن يرتديها كأنّه صبيّ؛ وحين يضجر تُذكّره بعماه وضعفه، وبأنها أمُّه التي تخاف عليه. يسـير وهو يكاد لا يشـعر سـوى بشـعر الصـبيّ يطمئِنه إلى أنه يمشي معه. لم يفقدِ البصر سوى متأخّرًا. كان قد بدأ يرى ظلالَ الأشياء، ومع الوقت أصبح يتحسَّسها ولا ينظر إليها. لم يعدْ يعرف معنى النظر؛ كلمةٌ أصبح يتذكّرها مثل حوار قديم تختلط مفرداتُه في الذاكرة. يتحسّسُ شعر الصبي ويقول له:

ـ بُنَيّ، عليك أن تقصّ شعرك، لقد أصبح طويلًا.

لا يردّ الصبيّ. إنه الصمت الذي يُدخِلُ نفسه فيه كلّ حين.

❖❖❖

في الليالي المقمرة يسـيران أيضًـا عائدَيْن من السـوق بعد أن ينهيا المهمّة. لا يسأل الضـريرُ ابنَ أخيه عن جمال السـماء أو الأرض، ولا عن البشـر. يسـيران صامتين، وأحيانًا يكسِر العمُّ الصمتَ فيغنّي فقراتٍ من الشعر الحسانيّ القديم. يسمع الصبيّ الغناءَ ويحفظه بذاكرته القويّة، ولكنه سـرعان مـا يهرب منه إلى الواقع حين يكونان في الحافلة المكتظّة التي تُقلّهما بين الأسـواق؛ فوقتها لا يفكّر سوى في الطريقة التي يردُّ بها عن جسد عمّه لَكَزاتِ الباعة الذين لا يلتفتون إلى جسده الهشّ المخبوء وسط الجلابيب.

وتسير الأيّام بهما: الطفلُ يقود الأعمى في الطريق، والعمُّ يتحسّس بحنانٍ رأسَ ابن أخيه. لكنّ الطفل خاف يومًا من عمه حين تمعّن في عينه؛ فلقد شكّ في أنه يرى أكثر ممّا يدّعي. حينها تساءل: أأقود عمّي فعلًا، أمْ شبيهًا به؟ شَغلته الفكرةُ بعد أن تمعّن يومًا مليًّا، فأدرك أنّ العين لم تمت تمامًا. كانا قد ابتعدا قليلًا دون أن يصلا إلى السوق، فضلّا الطريق، والعمُّ يتبع خطوَ الولد. وحين طالت الطريق ارتجف الرجلُ ورمشتْ عيناه، فسمع الطفلُ صوتَ عقله يقول له «اهرب من هذه العين التي لا ترى لكنها تجمع الصور.» رأى العين ذاتها ترمُش ذاتَ يوم أيضًا حين كان يفكّر في خدّوجة ولا يرغب في أن يعرف الأعمى بالأمر؛ فقد كان عمّه يحدّثه عن السوق، فإذا بالولد ينطقُ اسمَها المحبّب «خّدوجة» (لا خديجة). حينها نَظر إليه عمُّه من وراء العين البيضاء، فخاف كثيرًا.

❖❖❖

والآن، من أنا؟ الأعمى أمِ الصبي؟ لا أدري. ربما أكون مزارعًا يُراقب فحسب: يَرى من ثقب الباب، كلّ صباحٍ، دخولَ الطبيعة على الطبيعة؛ فيرقُبُ رجلًا مغطًّى بالجلابيب، وفتًى يرتعد من البرد يُساقُ إلى السوق، فيكتُم صرخة التي تَحته، تلك التي غاب زوجُها طويلًا، فاعتادت أن تتسلّل إلى بيت التّبن ليختلي بها، وحين تغادره ينام نومًا متقطّعًا، ثم يستيقظ فينصرف ليُعدّ أدوات الفلاحة ويستحمّ ويستغفر. يراهما حين يمرّان في وقتهما المحدّد، فيُسكِتُ صوتَ شهوتها لأنّ فجْرَ القرية يُسمع مَنْ به صمم.

وربّما أكون مدرّسَ الصبيّ الذي رمت الأقدارُ به في قريةٍ بعيدة، وتَعب وهو ينصح العمّ بالانتباه إلى ما سيأتي؛ فالطفل غائبٌ عن الدرس على الدوام، والعمُّ يقف احترامًا أمام المدرسة، يحرّك عصاه كأنما يهشّ شيئًا ويُنصِتُ، يقول نعم، لكنه يقودُ الطفل عند السادسة صباحًا إلى السوق. ورغم أنه مدرّس، والولد مجرّد رقم، فإنّه يحلم بكلّ ما يدور. ومن أحلامه مثلًا أنه ينام بعد العصر، فيرى فقيه الدوار، السي عبد الله، يَطلب مساعدته، داعيًا إيّاه إلى نظْم قصيدة معارضة لقصيدةٍ كتبها عليّ ابن أبي طالب، تبدأ هكذا: «المتّكئُ على الزمان لا بُدّ الزمان يَغْدِرُ به...» ويتعجّب المدرّس، ويحاول أن يُفسّر للفقيه أنّ القصيدة ليست لعليّ بل للمغربيّ سيدي عبد الرحمان المجذوب. لكنّ الفقيه يضحك ويرفض الاستماع ويُصبح مثل طفل صغير وهو يمنعُ المدرّس من الكلام بإصدار أصوات مختلفة مُضحكة.

ثم إنّ هناك شخصيْن لن أنساهما: رجلًا لا علاقة له بالولد ولا بعمّه، لكنه أحبّ خدّوجةَ حين كبُرَتْ وأصبحتْ عروسًا ويكاد يقتله الحسدُ من البائع الفقير الذي تزوّجها. ورغم أنه متعلّم وهي مجرّد بدويّة ترعى الغنم، فإنّه لم يحلم بغيرها، ينام ملءَ عيونه فيتحوّل في الحلم إلى شجرة من كثرة الخمول والتفكير بها. وحين يستيقظ يسأل نفسه: ما العلاقة بين الخمول والخميلة والخليلة؟ أما الرجل الثاني الذي لا ينساه فلا يُحبُّ خَدّوجة ولا يعرفها ولا علاقة له بالأمر، لكنه يعيش الكوابيس ويرى نفسه في الأحلام مثل شجرة يابسة، وحين يستيقظ يتساءل: ما العلاقة بين يابس ويائس؟

أما أنا فأجدُ نفسي أخيرًا بعد أن تهتُ في الممرّات، على الطريق الوحيدة الحقيقيّة، التي لا تهتزّ تحتها الأقدام، الطريق العزيزة التي سأنحني الآن لأبوسها، أمام الوادي الذي يلُفُّ الواحة. أنا والليل، والظلمة ترخي رداءها على الطريق. لا أسوق أحدًا، ولا يسوقني سوى الصبر. عيناي عينا صقرٍ تريان في الظلمة كلّ الأشياء. لستُ أعمى، ولكنّ يدي قادت الأعمى طويلًا في هذه الممرّات. تضعني التاكسي القادمة من سوقٍ ما أمام الوادي، ومعي كيس كبير. ثمة مَنْ ينتظرني في البيت على ضوء القنديل؛ خدّوج التي تحبّني وتشتهيني، ولا تقول ذلك بل تضحك وهي تمضغ المسواك البلديّ بلا توقّف حتى تُصبح لثتُها حمراء. والطفلة الصغيرة التي لم تبلغ الرابعة بعد، أتذكّرها وأنا في الماء. أنزل إلى ماء النهر البارد، وأعْبُر إلى الاتجاه الآخر، وأضحك. أتذكّر فمي يمسك بطرف البالونة، وحدقتيْ عينيها تتسعان، وأضحك، وأخاف أن أفلتها. عيناها مصوّبتان نحوي ويداها إلى أعلى، وحين تتمزّق البالونة اكتشفُ أنّ عمري أصغر من عمر الصبيّة لأنني تبعتُ هواي، وأنها قد غضبتْ لأنني ضيّعتُ بالونتها. أعبُرُ الوادي وأشمّ رائحة القصب. هل أشمُّ رائحته، أمْ أسمع صوتهُ يحكّ الريح؟ وهل للقصب رائحة، أمْ هي رائحة الطين الذي يَنغرس القصبُ في جسده بعد سيل عارم جرف الترابَ وعرّى العروق؟

أرى خدّوجة عند الباب تحمل البنتَ وتحثّني على قطع الوادي. أرجّ الكيس الكبير لأتأكّد من أنه بخير. وأتذكّر عمّي الأعمى الذي كنتُ أسير معه في هذه الطريق وحلمي القديم بأنّ أصبح تاجرًا كبيرًا، لكنّ التجارة لا تهمّ ما دامت خدّوجة أمام الباب.